(هديُ النَّبيّ صلى الله عيه وسلم عند الشَّدائد والمِحَن)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر:7]

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:21]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كلُّ أُمَّتي يدخلون الجنة إلا مَن أبى، فقالوا: يا رسولَ الل مَن يأبى؟ قال: مَن أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**» [أخرجه البخاري].

سُئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف كان حبُّكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: (كان والله أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظَّمأ).

كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يكتب لولاته على الأمصار يقول: (أصلحوا الناس بالسُّنَّة، فإن لم تُصلِحهم السُّنَّة فلا أصلحهم الله).

وقال الشيخ أحمد الرفاعي: (كمالُ المعرفةِ بالله الأخذُ بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمل بسُنَّته، وهذا القامع للنَّفس).

وأخرج البخاريُّ في صحيحه في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، عن أبي برزة رضي الله عنه قال: (إن الله يغنيكم بالإسلام وبمحمَّد صلَّى الله عليه وسلم).

أيُّها الإخوة:

بمناسبة دخول شهر ربيع الأوَّل شهرِ ولادة سيِّدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم أحببتُ أن أخطب فيكم خطباً أربعاً تتحدَّث عن هدي النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في الشَّدائد والأزمات، لنقتفي أثرَه ولنمشي على هداه، وأحسَن الهدى هديُ محمد صلى الله عليه وسلم، هذا أوَّلاً. ولنكثر من الصَّلاة والسلام عليه ثانياً؛ فإنَّ صلاتنا معروضة عليه -صلوات ربي وسلامه عليه-.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن من أفضل أيامكم يومَ الجمعة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإنَّ صلاتكم معروضة عليَّ**» [أخرجه أبو داود والنسائي]

عنوان الخطبة:

(هديُ النَّبي صلى الله عيه وسلم عند الشَّدائد والمِحَن)

تفكَّرت في حال النَّبي صلى الله عليه وسلم عندما تنزل الشِّدَّة؛ ماذا يقول؟ وماذا يعمل؟ وماذا يعتقد وينوي..؟ فرأيت أموراً ثلاثة أعرِضها عليكم في هذه الخطبة بعد المقدِّمة.

أيها الإخوة:

خَلَقَ الله تعالى رسولَه الكريم -وكذا سائر المرسَلين- بشراً من البشر؛ يألم ممَّا يألَمون منه، ويُسَرّ بما به يُسَرُّون، يصاب بالمرض حيناً ويعافى حيناً آخر، ويصاب بالتَّعب وقتاً وبالراحة وقتاً آخر، يجوع ويشبع، يعمل وينصَب، يضحك ويبكي، يتزوَّج ويطلِّق، يرضى ويغضب...

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ

ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: 7 - 11]

وقد مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته بشدائد وكربات ومحَن وأزمات لا يعلَم شدَّتها إلا الله، محَن وشدائد فرديَّة أصابته صلى الله عليه وسلم في جسده الشريف وفي أهله وماله، ومحن وشدائد جماعية أصابت أصحابه المؤمنين به.

وُلِد النَّبي صلى الله عليه وسلم يتيماً، وفقد في طفولته أمَّه، ثم جدَّه الكافل، وفقَد بعد الرِّسالة زوجه خديجة رضي الله عنها، وتألَّم لفقدها شديدَ الألم، ثم ماتَ عمُّه المنافح المناصر.

وذاق صلى الله عليه وسلم مرارة فقدِ الأولاد، فماتَ أولاده جميعاً في حياته ما خلا السَّيدة فاطمة رضي الله عنها.

مرض صلى الله عليه وسلم مراراً، وكان يُوعَكُ وعكاً شديداً، ونزل به الموت وإنَّه ليجد له شدَّة وسكرات ويتفصَّد جبينه عرقاً.

قالت عائشة رضي الله عنها: (ما أغْبِطُ أحداً يهون عليه الموتُ بعد الَّذي رأيتُ من شدّةِ موتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: وكان عنده قَدَحٌ من ماءٍ، فيُدخِلُ يدَه في القَدَح، ثمَّ يمسح وجهَه بالماء، ويقول: «**اللهمَّ أعنِّي على سكرات الموت**» [ابن ماجه وأحمد]، قالت: وجعل يقول: «**لا إله إلا الله، إنَّ للموت سكراتٍ**» [البخاري].

حُوصِرَ رسول الله صلى عليه وسلم وعشيرتُه وأصحابُه في شِعب أبي طالب ثلاث سنوات؛ حتى أكلوا أوراق الشَّجر، وسُمِعَت أصوات النِّساء والصِّبيان يصرخون من الجوع.

كُسر المسلمون وفيهم رسول الله صلى الله عليه في أُحُد، شُجَّ وجهُه الشريف، وكُسِرَت رباعيَّته، وجُرِحَت رِجلُه، وأُشيع بأنَّ محمداً قد قُتِل، وقال يومها المشركون: أُعلُ هُبَل..!

خنـدَقَ رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم على نفسـه وأصـحابه وعلى المدينـة عنـدما عَلِمَ أنَّ قريشاً جمَعَت له من العرب ما لا قِبَلَ له بمواجهتهم في غزوة الأحزاب.

قلَّ ماله وعزَّ نصيره وأُسِر أصحابُه..، وأَرجف المنافقون على أمّنا عائشةَ الأراجيف.

أُخرِجَ من داره وبلده، وهُدِّد بالقتل مراراً، وأغراه الجاهلون بالمال والمرأة والجاه.

أصيب نبيُّنا صلى الله عليه وسلم بكلِّ ما يصاب به المرء في الدُّنيا من محَن وشدائد، واللهُ وحدَه يعلَم الكربَ الَّذي أصابه، والألم الَّذي عاناه، فهل بعد هذا عذرٌ لمعتذر لا يرضى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في الشدائد والمحن؟!

وجدتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشدائد والمحَن متَّصفاً بثلاث صفات:

1) يألَم ولكنه صابرٌ راضٍ عن الله وقضائه.
2) يفزَع إلى الله ويأوي إليه.
3) يأخذُ بالأسباب، لدَفعِ القدَر بالقدَر.

أمَّا الأول: يألم ولكنَّه صابر راض: فتذكُرون -أيُّها الإخوة- فقدَه لولَده الرَّضيع إبراهيم، فاضَت روحُ الولد بين يدي أبيه صلى الله عليه وسلم، بكى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وقال: تدمَع العينُ ويحزنُ القلبُ، ولا نقول إلا ما يُرضي ربَّنا، والله يا إبراهيم إنَّا بك لمحزونون.

يألَم، ولكنَّه صابرٌ راضٍ عن الله وقضائه.

لما سلَّط أهلُ الطائف على النبيِّ صلى الله عليه وسلم صبيانَهم ومجانينَهم ورموه بالحجارة وأدموا جسده الشريف وسبُّوه وسخِروا منه وشتموه، أوى إلى بستان الفتى النَّصراني عدَّاس، دعا الدُّعاء المشهور الَّذي تقرأ فيه ألمَه صلى الله عليه وسلم وصبرَه ورضاه عن الله:

«اللهم إليك أشكو ضَعف قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على النَّاس، يا أرحَم الرَّاحمين، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربي، إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمني، أمْ إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إنْ لم يكُن بك عليَّ غضبٌ فلا أُبالي، ولكنَّ عافيتَك هي أوسعُ لي.

أعوذُ بنور وجهك الَّذي أشرقَت به الظلمات، وصلح عليه أمرُ الدُّنيا والآخرة، من أن يَنزلَ بي غضبُك، أو يحلَّ عليَّ سخَطك، لك العتبي حتَّى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»

[الطبراني في الدعاء].

يألَم، ولكنَّه صابر راضٍ عن الله وقضائه.

فلا هو صلى الله عليه وسلم يجزَع، ولا هو ييأس، ولا هو يتَّهم الله في قضائه وقدَره، بل إنه صلى الله عليه وسلم واثق بموعودٍ له وللعصبة المؤمنة معه بأن النَّصر والتمكين لهم في الأرض مِن دون الباغين الظالمين المشركين، فيقول لأصحابه وهو في أكثر مواطن الخوف والألَم في أثناء حفر الخندق حين لمعت تحت المعول ثلاث لمعات: **«أمَّا الأولى فإنَّ الله عزَّ وجل فتح عليَّ بها**

اليمن، وأما الثانية فإن الله عز وجل فتح علي بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق» [البيهقي في الدلائل].

قال عندها المنافقون: نحن نُخَندِقُ على أنفسنا وهو يَعِدنا قصور فارس والرّوم؟!

لكنَّ موعود الله جاء وزهَق الباطل.

هذا أوَّل هديٍ للنبي صلى الله عليه وسلم عند الشدائد: (يألَمُ، ولكنَّه صابر راضٍ عن الله وقضائه).

وأما الثاني: فإنه صلى الله عليه وسلم كان يفزع إلى الله، ويأوي إليه ملتجئاً داعياً منكسراً مضطراً:

عن حذيفة رضي الله عنه قال: **«كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَه أمرٌ صلَّى»** [أخرجه أبو داود].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: **«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَه أمرٌ يدعو»** [كما في جامع الأصول].

وتذكُرون دعاءه عند اجتماع الصَّفين في بدر، روى سيدنا عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه قال: (لما كان يومُ بدر نظرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاثُمائة وتسعةَ عشر رجلاً، فاستقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم القِبْلَةَ، ثم مدَّ يديه، فجعل يَهْتِفُ بربِّهِ يقول: **«اللهم أنْجِزْ لي ما وعدتني، اللهم آتِني ما وعدتني، اللهم إن تَهْلِكْ هذه العصابةُ من أهل الإسلام لا تُعبَدْ في الأرض»**، فما زال يهتف بربِّه مادًّاً يديه مُسْتَقبلَ القبلة، حتَّى سقط رداؤه عن مَنْكِبيه، فأتاه أبو بكر، فأخَذ رداءه، فألقاه على منكبَيه، ثم التزمَه فأخذه من ورائه، وقال: يا نبيَّ الله، كفاك مُنَاشَدَتُك ربَّك، فإنَّه سَيُنْجِزُ لَكَ ما وَعَدَكَ، فأنزلَ الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:9]، فأمدَّه الله بالملائكة) [مسلم].

وقُل مثلَ ذلك من الالتجاء إلى الله تعالى والضَّراعة إليه عند القحط رجاء السُّقيا، وعند الجوع رجاء الشِّبع، وعند المصاب رجاء العافية، وعند الكسوف رجاء انجلاء السماء...

فالثاني من هديِ النبي صلى الله عليه وسلم عند الشدائد والمحن: (أنه صلى الله عليه وسلم كان يفزع إلى الله ويأوي إليه).

وأما الثالث الأخير: (فقد كان صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأسباب، لدفع القدر بالقدر).

فلم يكن مِن هديه صلى الله عليه وسلم الاستسلام والقُعود، بل العمل والاجتهاد، فهو صلوات ربي وسلامه عليه في الأحزاب يحفر الخندق في خدعة حربية لم تعهَدها العرَب من قبل، وفي الهجرة يخرج متسلِّلاً في جنح الليل ويتخفَّى في غار ثور أياماً حتى يهدأ الطَّلب، وفي المرض يطلب الطِّبَّ ويتعاطى الدَّواء، وفي أيَّام المدينة الأولى يضع الحرس على بابه والسِّلاح في أهبته، ويحثُّ أصحابه على التَّعاون والتَّناصر، ويثبِّت المؤمنين في الأزمات، ويرسل العيون لتقصِّي الأخبار، ويشد على بطنه الحجرَين، ويتزوَّد للسَّفر ويدَّخر شيئاً للحضَر، ويعلِّم أصحابه القصدَ في الغنى والفقر.

كلُّ هذا من الأدب مع الله في الأخذ بالأسباب، ثمَّ يتعلَّق القلب بخالقها.

أيها الإخوة:

هذا ما وجدتُ عليه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في الشَّدائد والأزمات:

1) يألَم ولكنه صابرٌ راضٍ عن الله وقضائه.
2) يفزَع إلى الله ويأوي إليه.
3) يأخذُ بالأسباب، لدَفعِ القدَر بالقدَر.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

والحمد لله رب العالمين